بسم الله الرحمن الرحيم

اقتصار كتب السيرة على النبي (ص) — التعميم والتلفيق — قصد تسوئي عهد ما قبل البعثة — روايات الكتب العربية الاخرى — عدم غناء الكتب الحديثة — خطورة درس عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة — مافي كتب المستشرقين من مآخذ — الحافز على وضع الكتاب وظروفه — التنويه بكثرة العبر القرآنية لما قبل البعثة — عدم الزعم بجدة المادة — الناشئة العربية والقرآن — الروايات في الكتاب — ابواب الكتاب ومداه — اعتذار عن كثرة الآيات ومبرراتها —

— ١ —

من الغريب ان الذين كتبوا السيرة النبوية قديماً لم يهتموا على الأكثر — فيما يتعلق في عصر النبي (ص) وبيئته — ألاّ لذكر ماله علاقة بالنبي (ص) من نسب وأسرة وقبيلة وولادة ورضاعة وكفالة واسفار وزواج قبل البعثة ، وقلما تطرقوا الى ماكان عليه ذلك العصر وتلك البيئة من حالات أجتماعية وأقتصادية وسياسية ودينية يستطيع أن يقف المرء منها على صورة وافية لتلك البيئة التي ظهر فيها السيد الرسول (ص) وتم ماتم من نجاح عظيم لدعوته وسطوع شمسها سطوعاً باهراً كان ولم يزل له الأثر الأعظم في حياة العالم من جميع نواحيها .

والنتف التي وردت في كتب السيرة القديمة عن ماكان عليه العرب قبل الأسلام من تلك الحالات انما وردت استطرادية من جهة ، وغلبت

عليهـــا مسحة التعميم والاطلاق بحيث لايتبين القارئ منها — ألاّ فيما قلّ — العصر الذي تنسب اليه بصورة أكيدة من جهة ثانية . على أنه من جهة ثالثة حتى هذه النتف الأستطرادية لايخلو اولا يخلو كثير منها من طابع الصنعة والوضع ، ولا يصعب على المدقق ان يرى فيها قصد التلفيق او التوفيق ، وتفسير الحوادث والوقائع والآيات القرآنية ، بل وان يراها متناقضة مع النصوص او المامات القرآنية نفسها .

وهذه سيرة أبن هشام ، وهي اقدم كتب السيرة التي حفظها لنا الدهر ، — وعليها من طابع الجدّ والأمانة والرغبة الشديدة في التحفظ والتحوط في كثير مما روت من روايات وشعر تديّنا وتأثما ، سواء في ما ينسب منها الى ماقبل البعثة او بعدها ، او ماينسب منها الى النبي (ص) وأصحابه مايحمل على الأحترام والأجلال — تجد في كثير مما روته من الروايات ، وسردته من الاخبار ولا سيما مايتعلق منها بما قبل البعثة ذلك الطابع ظاهراً ، قد دونها وسردها جامعها كما بلغته من الرواة أو اطلع عليه من المدونات . منها ما أشار هو نفسه اليه[1] ، ومنها مالم يشر اليه ولكنه ظاهر لايخفى كأحاديث شق وسطيح في تفسير رؤيا تبع اليمن مثلاً [2] . وتقع على كثير من هذا ايضاً في تاريخ الطبري وهو مثل سيرة ابن هشام في القدم والجد والتحفظ والأمانة ، وفي طبقات أبن سعد ، وهي كذلك من كتب السيرة المعتبرة القديمة .

— ٣ —

هذا بالاضافة الى ماكثر ترديده ونقله في الكتب القديمة من روايات وأخبار لايسع المتدبر ألاّ ان يقف منها موقف التحفظ الشديد ان لم نقل موقف الأنكار ! بل ويلمس فيها قصد تقليل شأن عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة من حيث الحضارة المادية والأدبية والمدارك

(١) اقرأ ابن هشام ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٩ و ٣٢٨ مثلاً

(٢) ابن هشام م ج ١ ص ١٥ — ١٧

العقلية ، وحيث تصفها بصفات الجهل والانحطاط والغلظة والبؤس والعزلة والعوز ، والحرمان من وسائل الثقافة ومظاهرها ، والمادية الغليظة الجافية في التفكير والعقائد والأخلاق والآداب مهما كان في ذلك من مخالفة لطبائع الأمور وبديهات المنطق ، بل ومغايرة للبديهات ونصوص القرآن الكريم .

— ٣ —

ونحن نعرف ان عدا ما جاء في كتب السيرة القديمة من الاستطرادات التي أشرنا اليها يوجد بعض الكتب والرسائل ، وبعض الفصول والبحوث في الكتب العربية العلمية الأدبية منها والتاريخية والفنية عن حياة العرب قبل الاسلام وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم ؛ غير ان هذه الرسائل والكتب والفصول والبحوث قد كتبت بأسلوب عام مطلق ، لم يتناول عصر النبي (ص) وبيئته بصورة خاصة اولاً ، وان ما ورد فيها من روايات قد اختلط حابله بنابله وسمينه بغثه وصحيحه بباطله ايضاً بحيث لايمكن للمدقق المتدبر ان يقرأها الا بتحفظ ، وان يتردد كثيراً في اخذها حقائق وروايات تاريخية موثوقة او مقاربة ثانياً . ذلك لان القديم منها لم يدون الا بعد أمد طويل . ولأن الروايات ظلت تحفظ بالصدور ، وتتناقلها الألسن طول ذلك الأمد لعبت الأهواء وفكرة التلفيق في اثنائه دوراً كبيراً ، ولأن الحديث منها استند الى هذه الروايات وتلقاها مؤلفوها كحقائق تاريخية بنوا عليها ابحاثهم وفصولهم ورسائلهم وتقريراتهم من دون تمحيص على الأغلب .

— ٤ —

ومن الغريب كذلك ان الذين كتبوا السيرة النبوية او تاريخ الصدر الاسلامي الأول حديثا ، بل والذين وصفوا حياة العرب العقلية وتطرقوا الى بعض مظاهر هـــذه الحياة قبل الاسلام لم يصوروا لنا ذلك العصر وتلك البيئة تصويراً وافياً ، بل آسف ان اقول أنهم لم يصوروها لنا

تصويراً فيه غناء . ويكفيك ان تعلم ان فجر الاسلام وهو مع اجزاء السلسلة من أقوم الكتب التي صدرت في اللغة العربية في وصف مظاهر حياة العرب العقلية ومنها الدينية أهمل فيه بحث أديان العرب وعقائدهم قبل البعثة ، ولم يرد أشارة الى ما كان عندهم من كهانة وسحر وأساطير وتقاليد وعادات ، مع ان هذه النواحي وما بدا فيها من حركة نشيطة ولا سيما قبيل البعثة جديرة بالبحث والذكر كمظهر من مظاهر حياة العرب العقلية ؛ وكل ما كان من أمر انه اكتفى فيه بذكر اليهودية والنصرانية ، والفلسفة اليونانية ، وأثرها في تلك الحياة في العصر الاسلامي الأول . وقد فعل صاحب كتاب حياة محمد (ص) مثل ذلك تقريباً مع ما امتاز به هذا الكتاب أيضاً من ديباجة مشرقة ، وبحوث مستفيضة واستدراكات مهمة ، وملاحظة قيمة في طبعاته التالية خاصة . هذا ، مع أنك تأخذ كتاباً في حياة أحد الخلفاء او الملوك او الأمراء او العلماء او الشعراء والادباء مما ظهر منه جملة صالحة في الحقبة الاخيرة من عصرنا فتجد ان المؤلف لم يترك شاردة ولا واردة من جميع نواحي العصر الذي أظل المترجم له ، ومن ظروف البيئة التي عاش فيها قبيل حياته من أدبية وسياسية واجتماعية الا وتناولها بالبحث والدرس والتمحيص .

— ٥ —

وطبيعي أنه لا يمكن لأحد ان يزعم ان وصف عصر النبي (ص) وبيئته وصفاً شاملا ليس هو من الخطورة في تاريخ العرب والاسلام وفي السيرة النبوية في المرتبة التي توحي بالاهتمام لها اهتماماً كبيراً يزيد عما يكون من الاهتمام لوصف عصر وبيئة من ترجم له من خلفاء وملوك وامراء وشعراء وعلماء هذا الوصف الشامل الواسع . فبيئة وعصر ظهر فيها النبي (ص) ، وقام فيها برسالته الالهية ، وتوطدت فيها الديانة الاسلامية وما فيها من شرائع ومبادئ وقواعد كان لها ذلك الأثر القوي في

حياة العالم ؛ ثم عصر وبيئة زحف منها العرب الى العالم المتمدن واستطاعوا ان يقوضوا سلطان الدولتين العظيمتين اللتين كانتا تتساجلان الحكم والسيطرة عليه ، بقيادة عباقرة القواد ، وادارة نوابغ الولاة والحكام والقضاة بقل في وصفها كل اهتمام مهما عظم ، ويصغر في جانب العناية بها كل جهد مهما شق .

ولعل تلك الثغرات في الروايات العربية من حيث تدوينها ومادتها كانت من اسباب توقف فضلاء الكتاب والباحثين الذين نعرف فيهم سعة العلم ، والتفنن في القول ، وفهم مقتضيات التأليف وضرورة تلازم حلقاته والذين تنم كتبهم القيمة التي كتبوها عن اتزان وترو وأناة وتبصر ؛ لان ما ذكرناه يصح ان يكون سبباً وجيهاً للتوقف عن التورط في رسم صورة شافية لعصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة تتناسب مع خطورة الموضوع ودقته ، ويؤمن معها الزلل وسوء التلقي .

٦

كذلك نحن نعرف أن بعض المستشرقين قد كتبوا عن ذلك العصر والبيئة في سياق ماكتبوه عن حياة النبي (ص) وظهور الأسلام ؛ غير أن من الحق ان نقول ان المستشرقين طرائق في البحث والاستنباط قد تجعل بعضهم — حتى الذين لايندفعون وراء الحقد والهوى منهم — يتحكمون تحكماً في الآراء والنتائج ؛ ويقعون في أوهام واغلاط خطيرة ؛ اما بسبب تعظيم خبر او أشارة او رواية شاردة قد لاتكون صحيحة في أصلها ؛ أو لاتكون فهمت على وجهها ، او تكون رُجحت على غيرها بدون مبرر صحيح ؛ بسبب ماعتادوه من الغلو في التفلية او الشك او الأفتراضات الى درجة تجعلهم يقيسون مع الفارق ؛ ويستسيغون او يسوّغون مالا يسوغه منطق الواقع وطبيعة الأمور ، هذا مع التنبيه الى أنهم هم الآخرون استندوا في ماكتبوا على الروايات والكتب العربية القديمة التي اشرنا الى مافيها من مآخذ ونقاط ضعف . ويكفي ان نذكر

مثلا ماكاد يتورط فيه المستشرق الطلياني كايتاني في كتابه تاريخ الأسلام من الشك او التشكيك بقرشية بل وبعروبة عبد المطلب لأن رواية ذكرت ان اخاه المطلب احضره من يثرب وقال لمن سأله عنه انه « عبد » له مع مافي القرآن من الاشارات الصريحة ؛ ومع مافي الروايات من التواتر الذي بلغ حد اليقين . وهذا المؤلف يعد من الفئة القليلة التي لم تكتب بدافع الغرض الشديد وقصد التسوئي والتشويه ؛ اما المغرضون(١) الذين كتبوا ما كتبوا بدافع الحقد والغرض فقد تورطوا في كثير من بحوثهم وتقريراتهم ، وخرجوا في بعضها عن العلم والبحث والجد والأمانة مما يعرفه من اطلع على كتبهم ودراستهم ! وما نحن في غنى عن البحث فيه هنا لأنه خارج عن نقاط بحثنا .

— ٧ —

ولقد كان لي فراغ كان القرآن الكريم لي فيه نعم العون والرفيق(٢) فاشتغلت في خدمته حفظاً وتلاوةً وتعمناً وتدبراً ؛ فلفت نظري ما فيه من آيات كثيرة جداً فيها وصف او اشارات تساعد على رؤية صور كثيرة لما كانت عليه الحياة الدينية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية والمعاشية في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة . فقلت في نفسي لم لا يكون القرآن مصدراً لتصوير هذا العصر والبيئة وفيه ما فيه من هذه الآيات ؟ وهو يعد اوثق واصدق واقدم ما يمكن ان يستند اليه كاتب

---

(١) نحيل القارئ مثلاً من كتاب لا مانس في « العرب الغربيين قبل الاسلام ليرى ما فيه من غرض وتحكم والاخذ باي رواية مهما ضعفت او تفهت في سبيل تثبيت النظرية التي يدلي بها .

(٢) سجن المؤلف بحكم المحكمة العسكرية الافرنسية في دمشق بسبب قضية فلسطين من تاريخ ٥ حزيران ١٩٣٩ الى ٣ تشرين الثاني ١٩٤٠ وقضى ربع المدة في سجن المزة العسكري وباقيها في سجن القلعة في دمشق واطلق سراحه بعد انهيار فرانسة العسكري بقليل قبل اتمام مدة الحكم .

او باحث ؛ واذا كان يصح ان يحيك في صدر امرئ شبهات كثيرة في ماروته كتب السيرة وغيرها من روايات بسبب تأخر تدوينها ، وما يمكن ان يكون قد اعتور حفظ الصدور وصحة النقل من لبس ، وما يمكن ان يكون قد تسرب الى الروايات من اصابع الاهواء والميول والاغراض والصنعة والتلفيق فان القرآن هو من جميع هذه الشوائب فوق كل مظنة واقدس من ان تصل اليه شبهة سواء في صحة التدوين او سرعته ، بحيث كان كذلك دائماً عند جميع الناس تقريباً على مختلف أهـــوائهم واجناسهم وأديانهم وأزمانهم ؛ وما روي عن بعض الزيادات في الحروف والاختلاف في الاعراب والنحو والقراآت ، حتى وما روي عن بعض الزيادات والنقص في الكلمات وما قيل من نسخها واثباتها — على ما فيه من علات وثغرات توجب التوقف (١) — لا يؤثر أدنى تأثير في صحة ووثوق ووصول القرآن الينا سليماً من كل شائبة منذ عهد النبي (ص) وخلفائه الراشدين ، ويمكن ان يقال على هذا الاعتبار ان ما يمكن الاستدلال به منه على ما كان عليه عصر النبي (ص) وبيئته قبل الاسلام مثل ذلك هو فوق كل مظنة ، وأسمى من أن تصل اليه شبهة او شك . وهو على كونه مبلغاً بلسان السيد الرسول (ص) عن الله انما كان يقرر حوادث واقعة ، ويصف حالات قائمة ، وينزل الوحي به في المناسبات المشهودة ، فهو الكلمة الفاصلة والقول الحاسم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في تلك الحوادث والحالات والمناسبات ؛ على ان غير المسلم ايضاً لا يسعه ألا ان يأخذ بهذا الاعتبار اذا نظر فيه على انه وثيقة معاصرة صادقة :

---

(١) افردنا في مقدمة التفسير القويم الذي اعاننا الله على اتمامه فصلاً خاصاً بتدوين القرآن ، ألممنا فيه باكثر ما قيل وارد ؛ واثبتنا ان ما بين دفتي المصحف المتداول وبترتيبه المتعارف هـــو القرآن الذي مات النبي (ص) عنه .

ولما تتبعت آيات القرآن واخذت ابوبها على مواضيع متنوعة مما يتناول وصف عصر النبي (ص) وبيئته من مختلف نواحيها ازددت يقيناً بأمكان رسم صور كثيرة لها من القرآن وان لم تكن وافية بكل شيء فانها قد تكون محتوية الخطوط الرئيسية للصور التي يحسن ان تكون ؛ بل وسيكون فيها صور جديدة كثيرة لم ينتبه اليها ، وصور صادقة اخرى تتغاير قليلاً او كثيراً مع ما هو مستقر في الاذهان ايضاً ؛ ثم انها تكون الى هذا طريفة في بابها حتى ولو كان كثير منها تعد بدائه معروفة ، لاني لا أذكر ان أحداً حاول ان يرسم مثل هذه الصور وفي نطاق القرآن الكريم وحده ؛ هذا مع التنبيه على ان ما يمكن رسمه منها انما هو بطريق الاستلهام والاستدلال من خلال الاسلوب والتعابير والاوصاف القرآنية التي لم تكن بسبيل تقرير هذه الصور بالذات ، وانما كانت بسبيل الدعوة والموعظة والانذار والتبشير والترغيب والترهيب والتنويه والتنديد والحكاية الخ الخ ...

— ٨ —

ولا يصل بي الزعم طبعاً الى القول ان ما في القرآن من دلالات على كثير مما كان في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة قد بقي مهمل الشرح والتنويه . فقد تداول القرآن مئات الملايين من الناس في مختلف العصور والاقطار ، ودرسه مئات الالوف ، وفهمه عشرات الالوف وكثير من هؤلاء قد ألموا بتلك الدلالات ، وارتسمت في اذهانهم صور كثيرة لما كان في ذلك العصر والبيئة اقتباساً منه . وفي كتب السيرة والتفسير شيء كثير من الشرح والتعليق في هذا الصدد . وبكلمة ثانية اني معترف بان مثل هذه الصور لاتكون جديدة المادة على الذين لهم عهد بقراءة القرآن قراءة فهم وامعان .

غير ان هذا لا يمنع من القول ان اكثرية قراء القرآن الساحقة لا تقف عند آياته وقوف التمعن والاستبصار ، وليس في استطاعتها ان ترى

كثيراً مما احتواه من صور ، بل وان هذا ليصدق بعض الشيء على كثير من افراد تلك الفئة القليلة ؛ كما ان جل ناشئتنا ان لم نقل كلهم الذين تيسر لهم نصيب ما من الثقافة ؛ اما انهم لم يتيسر لهم ان يقرأوا القرآن ومن باب اولى كتب التفسير والسيرة — واما انهم قرأوه او أقرئوه كله او بعضه في طفولتهم ثم انقطعت صلتهم به . واذا وجد من قرأه فيهم قراءة تدبر وتبصر شغفاً او لاجل البحث فانهم نادرون جداً . وليس من شك في ان صوراً مثل هذه الصور تكون لناشئتنا وشباننا هؤلاء خاصة جديدة ، وتخدم في ذات الوقت في ايجاد الصلة المبتوتة بينهم وبين القرآن الكريم ، وهو أمر له خطورته وقيمته ؛ فأن من الشأن حقاً ان تكون الصلة مبتوتة او في حكم ذلك بين الناشئة العربية وخاصة المسلمة وبين القرآن الذي هو كتاب الدين الذي اليه ينتسبون ، ومناط الفخر الذي به يفخرون ويعتزون .

— ٩ —

كل هذا جعلني استخير الله وامضي في محاولة رسم هذه الصور اقتباساً من القرآن الكريم ، ومجردة عن الروايات الا حيث تكون مفسرة او شارحة او شاهدة على صحة الاستدلال والاقتباس . وبذلك أكون قد سددت فراغاً مازال اتلهف على سده من قبل من هم ابرع مني واوسع اطلاعاً وتفننا واحاطة في بحث عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة بحثاً وافياً ، وتصويرها تصويراً صادقاً وشاملا ؛ وأديت واجباً نحو شبابنا بوصل مابينهم وبين القرآن ؛ فكان من هذه المحاولة هذا الكتاب الذي اضعه بين يد القارئ .

وقد احتوى الكتاب اربعة ابواب متسقة مع بعضها من حيث البحث والتأليف ؛ تناول اولها الأقليم والسكان ومعايشهم وأصولهم ، وثانيها حياة العرب الاجتماعية وثالثها حياة العرب العقلية ، ورابعها الاديان والعقائد التي كانت منتشرة في ذلك العصر والبيئة على النحو المبين في فهرست المواد .

ولقد غدا الكتاب بالاضافة الى مواضيع ابوابه المتسقه مجموعة دراسات وتحليلات قرآنية بما تناوله من درس الآيات وتحليلها ؛ والتنويه بدلالاتها ؛ والاشارة الى ماتلهمه من ظروف نزولها ومناسبتها ؛ وعلاقة ذلك بما قبل البعثة ؛ مما ارجو ان يكون قد زاد في طرافة الكتاب وفائدته .

— ١٠ —

وسيرى القارئ أنني اكثرت من الاستشهاد بالآيات في صدد المواضيع التي طرقتها . والحقيقة اني لم اقصد التكثر ولكني قصدت الاكثار . لان القرآن هو سند الكتاب ومرجعه الوحيد اولا ، ولان الآيات مهما تشابهت فان فيها من الفروق مايجعل من المفيد سردها على تشابهها ثانياً ؛ ولان كثرة الآيات في صدد ما مما يمكن القارئ من لمس الموضوع المراد تقريره على وجه أكثر وضوحاً وادعى الى الانتباه ثالثاً ؛ ولم أر أن اكتفي بالاشارة الى ارقام الآيات ليرجع القارئ اليها في المصحف لان اثباتها أمام النظر مباشرة في الكتاب هو أكثر تيسيراً للقارئ في متابعة البحث والاستمرار فيه . ولعل في هذا بالاضافة الى ماتقدم وسيلة عملية الى تحقيق ماارد ناه ايضاً من تجديد الصلة بين شبابنا وبين القرآن بأسلوب يساعدهم على فهم متناول آياته ومداها .

وسواء أكنت على صواب في ما اقدمت عليه ام على خطأ وسواء استطعت ان أرسم تلك الصور واقوم بهذه الدراسة التحليلية بشيء من الوضوح وصحة الاستدلال ام قصرت فاني قد اجتهدت في ماصنعت ؛ وارجو ان يكون لي من حسن قصدي شفيع ؛ ومن اجتهادي نصيب ، ومن الله اطلب التوفيق والسداد ؛ والمغفرة والرضوان .

٢١ رمضان ١٣٦٥ وفق ١٨ آب ١٩٤٦ (١)

---

(١) هذا تاريخ بياض المقدمة . وقد انتهى تسويد الكتاب في شهر المحرم لسنة ١٣٥٩ وفق شهر آذار لسنة ١٩٤٠ وانتهى تهذيب النسخة التي سلمت للمطبعة في أول شهر شوال لسنة ١٣٦٥